الحركة الصوفية بالمغرب الأوسط

في القرنين الثامن والتاسع للهجرة

الرابع عشر والخامس عشر للميلاد

أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط
إعداد: الطاهر بونابي
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر ٢٠١٠
إشراف: الأستاذ الدكتور عبد العزيز فيلالي

عرض
عبد القادر بوعقادة
أستاذ بقسم التاريخ – جامعة المسيلة
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

مقدمة:

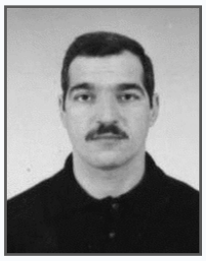

إن البحث في تاريخ المغرب الإسلامي اليوم يعتبر بلا شك من الميادين البحثية الشيقة والتي لا تزال بكرًا تتطلب بذل الجهد واستفراغ الوسع لأجل استجلاء واقع الحياة عامةً - السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعسكرية - والوصول إلى توضح الرؤى في قضايا بقيت لحد اليوم غامضة في مسار تاريخ المنطقة. وعلى الرغم من الصعوبات التي تميز الحقبة التاريخية الوسيطية من ندرة المادة الخام التي يعتمد عليها الباحث بسبب الإهمال، أو الإتلاف، أو عوامل تاريخية كهيمنة الممارسات الاستعمارية التي قُصد منها محو الهوية التاريخية لمجتمعات المغرب الإسلامي، بالإضافة إلى صعوبات أخرى ليست مجالاً للتطرق في هذه الوقفة، فإن جهود النخبة المغاربية تحاول أن تتجاوز هذه الموانع لتحقيق الهدف العلمي المنشود.

الواقع أن موضوع الحركة الصوفية يدخل ضمن الكتابة التاريخية للمغرب الأوسط (الجزائر) فترة العصر الوسيط، هذا المجال والزمان طالما شغلا اهتمامات باحثي الآونة الأخيرة لما لوحظ من قلة الدراسات التي تهتم بالشأن المغرب- أوسطي، وتنهض هذه الرسالة دليلاً على جدية هذا التوجه.

إن الباحث قد اقتحم مجالاً صعبًا يتطلب المتمرس والإطلاع على الشأن الصوفي، حيث أخذ هذه الظاهرة (التصوف) ضمن الإطار الشامل للمغرب الإسلامي محاولاً الترجيح بين طرحين؛ بين مَن يعتبر أن فترة القرنين ٨، ٩هـ هي مرحلة ضمور للفكر الصوفي وانحطاطه الذي يدخل ضمن حالة التراجع والانقباض الفكري والثقافي التي شملت بلاد المغرب الإسلامي، وطرح آخر يثبت بدراسات أكاديمية جدّية المرحلة وثرائها بالفكر الصوفي وتنوع طقوسه وأشكاله بدليل تنوع وحجم المدونات الصوفية، واقتحامها حقل الإصلاح الديني والاجتماعي من جهة، ومن جهة ثانية صياغة فكر "الظاهرة الصوفية" ضمن المدرسة المالكية الأشعرية وطابعها الأصولي المقاصدي، والمحافظة على حظ التلازم بين الشريعة والحقيقة.

كما سجل الباحث من خلال هذه الدراسة تهميش النموذج الصوفي المغربأوسطي، سواء نماذج المدن التي كانت تابعة للحكم الحفصي (بجاية، قسنطينة، بونه) أو بالنسبة لرجال التصوف أثناء فترات الغزو المريني بالمنطقة الشمالية الغربية رغم العطاءات التي تمتع بها متصوفو المغرب الأوسط ودورهم في تحريك هذه الظاهرة شرقًا وغربًا. وهذا ما يطرح جملة من الإشكالات أبرزها مدى جدية ووعي دراسات الحركة الصوفية في ظل تغييب الظاهرة على مستوى المغرب الأوسط، وهو جزء لا يتجزأ من بلاد المغارب، بل إن الفضاء الجغرافي الواسع بالمغرب الأوسط من شأنه أن يكون جديرًا بالاهتمام لآثاره على الحركة الصوفية.

سعى الباحث بفضل أطروحته إلى إظهار زيغ المدرسة الكولونيالية التي اهتمت بالشأن الصوفي والتي اعتبرها غير منصفة، حيث عملت على توظيف الظاهرة لأغراض منها محاولة إخضاع المقاومة الوطنية التي كان أغلب قادتها شيوخ طرق (مرابطين)، وما زاد في زيغها هو افتقارها إلى المعلومات القبلية حول التصوف والأطوار المذهبية العقدية مع ضعف التحكم في المصطلحاتما أدى إلى نسج طقوس وخرافات، ذلك أن غاية هذه المدرسة هو تأكيد طابع الجبرية السالبة للإرادة والمضادة لأي نشاط من شأنه قلب الأوضاع.

ومع أن الباحث قد قيم الدراسات الصوفية الحديثة وجعلها في ثلاث مستويات هي: دراسات كبار الباحثين الجزائريين الذين سلطوا الأضواء على المعالم الكبرى للظاهرة الدينية وفتح منافذ يمكن الولوج من خلالها إلى الظاهرة الصوفية للمغرب الأوسط، ويأتي في المستوى الثاني دراسات تناولت مشاهير الصوفية ومناحيهم في التصوف، في حين أن المستوى الثالث تناول الظاهرة الصوفية كبعد ناجم عن أزمات اقتصادية وسياسة واجتماعية. مع أن ما يحصل خلال الأزمات هو تفعيل للواقع بريادة المتصوفة، بالإضافة إلى عدم لجوء أصحاب هذا الطرح إلى استثارة النص الصوفي، وعدم التعمق في الدلالات النظرية والتجريبية مما جعلهم يجانبون الصواب في طرحهم.

ورغم جدية هذا التقييم والترتيب فإن الجهود لا تزال أولية في دراسة الظاهرة الصوفية بالمغرب الأوسط، ويمكن اعتبار الدراسات المذكورة بأنواعها مرحلة لا يمكن التغاضي عنها، ولا تجاوزها في إطار المسعى الرامي إلى إخراجها من التهميش والنسيان والإهمال، مع اعتبار ثاني هو النقلة النوعية التي تحققت بفضل نماذج كهذه الأطروحة الجادة.

إن خصوصية التصوف في المغرب الأوسط في القرنين ٨، ٩ هـ قد لفتت الانتباه إليه بعد أن تغيرت بنية الحركة الصوفية عما كانت عليه منذ القرن ٤هـ، حيث تم استقطاب الفعاليات الدينية في القبلية والمدنية فشملت العلماء، والفقهاء، والقضاة، والشرفاء، وتسربت الظاهرة إلى البيوتات العريقة مما أدى إلى ظهور التصوف النسائي، وهو ما زاد من حجم البنية الموروثة، كما جعل الظاهرة تسقط بظلالها على المشهد الديني والاجتماعي والثقافي.

دورية إلكترونية مُحكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

لقد لاحظ الباحث أن اقتحام صنف العلماء والقضاة للتصوف في هذين القرنين قد أدى إلى توجيه مسار الفكر الصوفي وإخضاعه لطبيعة الواقع ، كما اعتبرت هذه الفترة فترة حسم (ق ٨ ، ٩هـ) وضبط لمعالم الحركة الصوفية على يد الفقهاء ، ففي مدرسة تلمسان مثلاً تحول التصوف الفلسفي إلى تصوف عرفاني سني وتم تحصينه بآليات استشعار الحقيقة المتآلفة من التوحيد والعبودية والربوبية وصولاً إلى مرتبة الجمع والفرق على نهج الجنيدية ، ومزج نظرية الاتصال بعالم الشهادة بواسطة التأصيل العقلي للفرابي المتوفى سنة ٣٣٨هـ بتجربة تلقى الأنوار والفيض الإلهي على نهج ابن سينا (ت٤٠٨هـ) في بوتقة التوفيق بين العلم والإيمان وفق فلسفة ابن رشيد الحفير (ت ٥٩٥هـ)، أي إضافة علم الباطن إلى العلوم الشرعية والعلوم العقلية في قالب ما اصطلح عليه بالرشدية الجديدة. أما في بجاية فقد حسم الفقهاء المتصوفة اختيارهم في نهج التلازم بين الحقيقة والشريعة عبر الجمع بين فقه العبادات وفق مذهب مالك وأسرار أحكامها ، والتي تم تغذيتها بالجوانب الروحية المغذية بدورها للقلب والعقل لتحقيق كمال الإنسان الأخلاقي ، وبذلك تم إدماج التصوف ضمن المنظومة المالكية الأشعرية.

كما تم مَن قبل هؤلاء الفقهاء الصوفية أيضًا دراسة وفرز أدبيات الطرق الصوفية ، واختيار ما يتساير والمنطلقات العرفانية النسبية والعقلانية الأصولية والمالكية الأشعرية لهاتين المدرستين – تلمسان وبجاية- مع مراعاة ما تتطلبه الخصوصية الحضارية لجغرافيا انتشارها في نطاق الشمال حيث المجتمع المدينة المتحضر.

وقدم الباحث جملة من الملاحظات التي تميز تصوف المغرب أوسطي في القرنين قيد الدراسة وأهمها:

- أنّ تطور الحركة الصوفية لم يكن على مستوى الفكر فحسب ، بل كان حتى على مستوى العمران حيث اعتبرت هذه المرحلة من أخصب المراحل تنوعًا في جانب المؤسسات الصوفية ، وتعدد وظائفها وحركية أجهزتها.
- وأنّ ظاهرة الصراع بين الصوفية والفقهاء ، أو الصوفية والسلطة قد غابت في هذه الفترة وهو بذلك لعله يسجل تعمد الفقهاء تجاوزهم لكثير من أعمال الصوفية التي كانت مثار الجدل والصراع ، على سبيل المثال موضوعات الذكر والكرامة والسماع.

في محاولة الباحث الجادة عمد إلى تأصيل التصوف فبحث عن جذوره واهتدى إلى تحقيب هذه الظاهرة بالمغرب الأوسط ، إذ أرجعها إلى المرحلة الجنينية انطلاقًا من زمن الظهور الإباضي ليعزز هذا المنحى بدور المثاقفة بين المشرق والمغرب من باب التأثير والتأثر ، وهو ما يظهر من خلال رحلات العلماء ، وولوج المؤلفات من وإلى المغرب الأوسط ، وعلى إثر هذا برزت المدرسة الصوفية المغرب أوسطية التي تطورت مبنى ومضمونًا إلى غاية ق ٨هـ. والحقيقة أن هذا التأصيل لموضوع تصوف المغرب الأوسط يحتاج إلى نوع من الحلحلة والتدقيق ثم التمييز بين الزهد والتصوف ، حيث أن إرجاع الظاهرة إلى عهد الإباضية الأولى قد يتصادم مع بعض القناعات التي تؤخر الظاهرة إلى ما بعد.

ولا شك أن اعتماد الباحث المنهج التاريخي في رصد بنية الحركة الصوفية هو مما أمكنه من إماطة اللثام عن كثير من المظاهر والسلوكيات ، فتحديد مصطلح الولي والصوفي والقطب والمرابط والنقيب والمريد والطريقة ، والتطرق إلى البيوتات الصوفية قد أعطى ملمحًا مفيدًا لهذه الظاهرة. كما لا يقل عن هذا أهمية رصد المنتوج الصوفي المكتوب والشفوي ، أو ما يعرف بالأدب الصوفي في تعريف الحركة الصوفية التي تغلغلت بفضل هذا نحو البنية القبلية بالبادية فضلاً عن الفعاليات الاجتماعية والدينية الفكرية بالمدينة.

يقرر الباحث أن المكون الصوفي انتهى إلى أشكال وتنظيمات كانت لها علاقاتها بالمجتمع والفقهاء والسلطة ، ومن خلال هذه التنظيمات تدرج المريد إلى درجة الصفاء ، فالطريقة المدينية ، والشاذلية ، والتازية ، والزروقية ، والراشدية ، والقادرية ، والرفاعية ، كلها مثلت التواجد الصوفي بالمغرب الأوسط وبقيت بفضل أجهزتها وهياكلها ورصيدها الموروث في تعاطيها مع المجتمع والنخبة والسلطة. ومع أن الأذكار والأوراد والوظائف قد تختلف من طريقة إلى أخرى إلاّ أن هناك طقوسًا مشتركة وحدت بينها في الغالب.

ومن أهم النتائج التي طرحها الباحث ، هي أن المدونات الصوفية المغربأوسطية في القرنين ٨ ، ٩هـ فيما يخص التوحيد العرفاني السني ، والحقيقة والشريعة ، وفي ضبط التصوف ، ونقد البدعة ، وتسنين وتقعيد طقوس التنظيمات الصوفية ، قد جعل الحركة الصوفية تستند إلى أطاريح ثابتة محلية أكثر من المراهنة على العناصر الخارجية ، وهو ما يعطي الانطباع بأن متصوفة المغرب الأوسط قد كان لهم تأثير على مستوى الظاهرة المدروسة في باقي بلاد المغرب الإسلامي.

أما فيما يخص التأهيل فإنه يحسب لصالح التصوف تأطيره للعرب الهلالية في منظومة دينية بعد أن عجزت كل المشاريع السياسية والمحاولات الفقهية منذ القرن ٧هـ بقيادة السلطة أو الفقهاء بغية دمج هؤلاء في النسيج الاجتماعي المغربأوسطي ، وهو ما أدى إلى نوع من الاستقرار لهذه القبائل ، ويعكس ذلك مظاهر الزراعة والالتفات حول المعلم الديني (المدشر ، الزاوية ، الرباط) ، ثم الانتساب إلى الضريح المرابطي وهذا ما يبرز بأن الحركة الصوفية قد ملأت الفراغ الذي تركه كل من السلطة والفقيه.

خاتمة:

إن أطروحة الباحث الطاهر بونابي والتي تقع في أزيد من (٨٦٠) صفحة ، والمقسمة إلى جزأين ولكل جزء أبواب وفصول ، تعتبر بحق باكورة مدرسة تاريخية جزائرية حقيقية يمكن اعتمادها في استنطاق الظاهرة الصوفية ، نظرًا لما اعتمده الباحث من جهد ووسائل طيلة سنوات ، لأجل الوصول إلى المادة التاريخية الدفينة سواء على المستوى المحلي ، أو على المغربين الأقصى والأدنى (تونس) من خلال الزيارات المتكررة التي أوصلته إلى الكشف عن مجموع الكنوز التي أنجبها المغرب الأوسط ولا تزال رهينة المكتبات المغربية والتونسية ، والتي يجدر بنا الاعتناء بها وتقديرها لجهد ماض وفي سبيل الانطلاقة نحو مستقبل مشرق في مجال البحث التاريخي الهادف.

دورية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449